الأقمار الصناعية كلام قديم[1]

يظهر أنني سأتولى لأخبار اليوم مهمة البوليس الفلكي، أو بوليس الأخبار الفلكية التي يذيعها البرق بعد أوانها بعشرين سنة في بعض الأحيان، وبعشرين قرنًا في أحيان أخرى!

فمنذ أسابيع أنبأنا البرق من العالم الجديد بخبر اليوم، أو بخبر الساعة، كما قيل في ذلك الحين، وزعم لنا أن المصادر الرسمية تذيع لأول مرة أنها تشتغل باختراع الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض كما يدور القمر، وأن كثيرًا من الأطباق الطائرة إنما هي تجارب أولية لهذا الاختراع.

وعجبنا لزعم البرق أن الخبر يذاع لأول مرة من المصادر الرسمية، فإن الكتب المطبوعة منذ سنوات تقرر فيها هذه الأخبار، منسوبة إلى مصادرها الرسمية التي أعلنتها قبل سبع سنوات.

أما حديث الأقمار الصناعية في غير المصادر الرسمية، أو الحكومية، فأقدم من ذلك بأعوام طوال.

وفي الأسبوع الماضي نقلت أخبار البرق أعجوبة جديدة في زعم وكلاء الأنباء، ونشرتها الصحف اليومية عندنا على هذا الاعتبار، وزبدتها أن العلماء يعللون اللون البرتقالي والألوان المخضرة الداكنة على المريخ بأنها ألوان البقاع الواسعة على ذلك الكوكب، وهي تتبدل حسب اختلاف المواسم الزراعية.

---

[1] الأخبار: ٢٤ / ٩ / ١٩٥٥.

وننقل ذلك الخبر كما جاء في صحيفة غير أخبار اليوم يقول وكلاؤها:

إن الجمعية الجغرافية الأمريكية أعلنت أن أحد علمائها اكتشف على سطح كوكب المريخ الأحمر اللون منطقة كبيرة، لونها أزرق ضارب إلى الخضرة، تُقدر مساحتها بمائتي ألف ميل مربع؛ أي ما يعادل مساحة ولاية تكساس، والمعتقد أن هذه المنطقة تغطيها مادة خضرية حية، وقالت الجمعية في بيانها إن هذا الكشف يعد أعظم تطور في معرفة الإنسان لجغرافية المريخ، منذ أن صنعت خريطة كاملة لهذا الكوكب.

ثم مضى راوي الخبر يقول:

وقالت الجمعية الجغرافية في بيانها إن البيولوجيين يميلون إلى الاعتقاد بأن هذه الحياة أقرب ما تكون إلى المادة الموجودة في أنواع الفطر المعروفة باسم الجزاز الصخري، التي تنمو على الصخور في المناطق الجدباء من سطح الأرض وعلى قمم الجبال، ويقول الدكتور سلايفر إن مثل هذه النباتات يمكن إنماؤها في المعامل تحت ظروف طبيعية وكيمائية معينة، والمعروف أن هذه الظروف متوفرة في المريخ.

قال:

وإذا كان في جو المريخ شيء من الأكسجين الطليق، فإنه يكون بنسبة ضئيلة جدًا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى بخار الماء.

هذه هي الأخبار والبرقية المثيرة.

وكلها — حرفًا حرفًا — مقررة في كتب الفلك التي طُبعت قبل سنوات، ومقررة كذلك في البحوث التي يسجلها أساتذة الجامعات، وأنت لا تفتح كتابًا واحدًا من كتب الفلك المبسطة، أو الكتب المطولة التي أُلفت لغير المختصين، إلا وجدت فيها هذه التقريرات جميعًا بمختلف العبارات والأساليب.

ففي الصفحة الـ (١٠٠) من كتاب العوالم حولنا Worlds Around us يقول المؤلف باتريك مور:

إنك تستطيع بمجهر صغير أن ترى العلامات على المريخ، فإن اللون الغالب برتقالي أحمر، وهو اللون الذي من أجله سُمي الكوكب بإله الحرب لهذه الصبغة الدموية، ولكن هنالك علامات داكنة أيضًا نلاحظها بضع دقائق، فنرى أنها تزحف وسط القرص من اليمين إلى الشمال.

ويستطرد المؤلف فيقول:

والأرجح أن الجوانب البرتقالية على الكوكب صحراوات من غير الرمل؛ لأن الرمل يتكون من فعل الماء الجاري على التربة والصخور، وليس في المريخ من الماء الجاري غير القليل، وربما كانت تلك الصحراوات مغطاة بالتراب، وأما جو المريخ فالنبات يتنفسه إذا أمكننا أن نثبت أنه يشتمل على الأكسجين الخالص، وكذلك يتنفسه الإنسان، لولا أن الظاهر لسوء الحظ أن الجو مركب من الغاز الذي لا ضرر فيه ولا يصلح للتنفس وهو النيتروجين، ونحن نعلم مع هذا أنه لا بد أن يكون في المريخ قليل من الأكسجين وقليل من بخار الماء، ولا تستطيع الأشجار والآجام أن تعيش بمثل هذا المقدار، ولكن نبات الصبير Cacti يستطيع أن يعيش عليه.

ويقول عن النبات عامة:

لا يدهشنا وجود النبات على المريخ؛ حيث تلائمه حالة الجو، وإنما المدهش حقًّا ألا يوجد فيه نبات!

هذا كتاب من المبسطات الفلكية.
وكتاب آخر من المبسطات، كما يدل عليه اسمه، يقرر هذه المشاهدات بعبارة أخرى.
يقول كتاب الفلك لكل إنسان Astronomy for Everyman في الصفحة الـ (١٢٤):

يتألف المريخ من قبعة ثلجية قطبية، تتراجع في الصيف وتنتشر في الشتاء، ومن نطاق محمر يحيط بالكوكب في مداراته الشمالية، ولعله يقابل النطاق الصحراوي من الصحراء الكبرى إلى جوبي، ومن مساحة خضرة إلى اسمرار ثابتة في جملتها، ولكنها تتغير في المواسم: منظرًا ولونًا وتخطيطًا، وتشير إلى وجود النبات.

ثم يقول إن الماء فيه، إن وجد، فهو قليل.

وكتاب السماء وأسرارها The sky and its Mysteries أعمق من ذلك قليلًا في معلوماته، ومؤلفه أجار بيت سكرتير الجماعة الفلكية البريطانية يقول في الصفحة الـ (٢١٨):

> وعلى المريخ نرى شيئًا يجوز أن يكون نباتًا، ولا مسوغ للجزم بامتناع وجود الأحياء الشاعرة عليه، وإن لم يكن ثمة دليل على وجودها ولا قرينة تعرفنا بأشكالها.

وأكثر من هذه الكتب توسعًا كتاب العوالم جاراتنا Our Neighbour worlds لمؤلفه الأستاذ فيرسوف، وهو يخصص للمريخ أكثر من ثلاثين صفحة كبيرة، ويلخص معلوماته بأن وجود الأكسجين محتمل ولكنه غير مؤكد، وأن اللون الأصفر قد تفسره زوابع بركانية، وأنه لم يوجد دليل قط على وفرة الماء في المريخ، وأن الحياة إذا كانت قد ظهرت حينًا على سطحه، فهي الآن مولية إلى الفناء.

ويشبه هذا الكتاب كتاب الحياة والكون لمؤلفه إيرل نلسون، وهو يقول في الصفحة الثانية والثلاثين وما بعدها: «إن المريخ يبدو محمرًّا، ويظن أن احمراره ناشئ من امتصاص الصخور لمعظم الأكسجين من جوه، والحياة كما نعرفها لا يمكن أن توجد في أحوال كأحوال المريخ، ولكن الحياة متطورة وفقت بينها وبين ظروف متباينة، فيجوز أن تكون حيواناته قد وفقت بينها وبين أحواله زمنًا طويلًا، ويجوز على هذا أن تكون موجودة في جوه الضئيل.»

أما أوفر الكتب التي نعرفها تعمقًا — بالنسبة لغير المختصين — فهو كتاب السيارات وأصولها لمؤلفه هارولد أوري Urey، وهو يلخص الآراء ويثبت منها بالحرف الواحد اسم نبات الفطر المعروف بالجزاز الصخري Lichens كما جاء في أخبار البرق المستعجل من العالم الجديد.

قال بعد كلام مطول، نقلًا عن العالم كويبر Kuiper قبل سنوات: «إنه وجد انعكاسًا ضوئيًّا من السيارة يماثل لون الصخر المؤكسد، مغطى على جزء منه بالجزاز الصخري، وهو يعيش على الأرض فوق القمم العالية والجبال الباردة، وتناسب الأحوال التي يفرض وجودها في المريخ.»

وكتاب السيارات هذا قد صدر سنة ١٩٥٢، ويحيل على كتب صدرت قبله بعدة سنوات.

ولولا أننا نريد أن نرجع إلى المصادر، لاكتفينا هنا بما ذكرناه نحن في كتاب ألفناه قبل ثلاث سنوات، وقلنا فيه من الصفحة الحادية والأربعين:

ومن أشهر القائلين بإمكان وجود الحياة على المريخ، العالم الفلكي سبنسر جونس، صاحب كتاب الحياة على العوالم الأخرى، وهو على ترجيحه وجود النبات في المريخ يقول: «إن لون سطح المريخ يزودنا بدليل قاطع على وجود الأكسجين الطلق في الماضي على الأقل، ويكاد وجود الأكسجين الطلق يستلزم وجود النبات، فإذا قرنَّا هذا الاستدلال بالأدلة التي تجتمع لدينا من التغييرات التي تطرأ على سطحه، حسب اختلاف الزرع موسمًا بعده موسم؛ أمكننا أن نفهم من ذلك أن وجود نوع من النبات في المريخ محقق أو يكاد، وليس في وسعنا أن نقول إن الحياة الحيوانية — وبخاصة أنواعها العليا — يمكن أن توجد في المريخ؛ لأن قلة الأكسجين فيه تجعل وجودها هنا بعيد الاحتمال، وإن كان رفض هذا الاحتمال رفضًا قاطعًا غير مستطاع لنزارة ما نعلمه عن حقيقة الحياة، غير أن مسألة وجود هذه الأشكال العليا في الوقت الحاضر على سطح المريخ، قليلة الخطر بالقياس إلى المسألة الأخرى التي تكاد تتحقق بالدليل القوي، وهي وجود حياة كائنة ما كانت هناك.

ثم قلنا:

إن جزمه بوجود النبات في المريخ يخالف تقديرات الكثيرين من نظرائه في المكانة العلمية؛ فإن العالم أرهنيوس Arrhenius يقول إن التغييرات التي استدل بها سبنسر جونس على مواسم النبات يمكن أن تفسر بتغير ألوان الأملاح الماصة في الأجواء الممطرة. والعالم المشهور سير جيمس جينس لا يرفض هذا التفسير، ويضيف إليه تفسير ليوت Lyot تغييرات تلك الألوان بانعكاسها من رماد البراكين، ويقول: إننا ولا ريب نشطُّ كثيرًا حين نقرر أن تغييرات اللون على سطح المريخ دليل قاطع على وجود الأكسجين الطلق ولو في الماضي، وإن الأكسجين الطلق يستلزم وجود النبات، وأبسط من هذا على التحقيق أن يقال عن الأكسجين الطلق الذي جاء من الشمس قد استوعبته الصخور كله، ولا موجب هنا لفرض وجود النبات.

كتبنا هذا قبل ثلاث سنوات في كتابنا «عقائد المفكرين»، وكان أحلاس القهوات ورقعاء البارات يعيبون يومئذ كتابنا في هذه المسائل؛ لأنها من مسائل القرون الوسطى التي فات عليها الأوان، ثم يأتي لهم البرق في أخباره المستعجلة بما كتبناه قبل ثلاث سنوات عن أخص حقائق الحياة، وطبل وزمر «يا جدع أنت وهو» بأدب الحياة وقصص الحياة وأسرار الحياة وأخبار الحياة.

وما هي أخبار الحياة عند هؤلاء؟

لا يكون الخبر عندهم خبر حياة، إلا إذا كان خبرًا عن امرأة هلوك أخذها ماجن رقيع وذهب بها إلى حيث يتمم القصة كتاب الإيضاح وما إليه؟

والنتيجة، بل النتائج المتعددة، لهذه البرقيات المستعجلة:

(١) أن بعض العلماء في هذا العصر يجني عليهم ضيق التخصص، فيعكفون على بحوثهم ولا يطلعون على بحوث زملائهم الذين سبقوهم إلى مثلها في أمثال أرصادهم، ولعلهم يكررون بها كل ما سبقوا إليه.

وهؤلاء المتخصصون «المغلقون» معروفون في البيئات العلمية الأمريكية من أجيال مضت، وإليهم يشير فولتير أمريكا — وندل هولمز — في أحاديث المائدة، التي ذكر فيها رجلًا ثائرًا على معركة الانتخاب، فحسبه من أنصار بعض المرشحين لرئاسة الجمهورية، ثم سأله فتبين له أن هذه الثورة إنما تدور على الترشيح لرئاسة فرع من فروع البحث في علوم الحشرات!

ونظن أن هذا التخصص المغلق هو الذي أطرفنا بخبر من أخبار البرق عن أمور منشورة في الكتب منذ سنوات.

(٢) وأن بعض وكلاء الأخبار يخطفون أطراف الكلام قبل أن يتبينوه، ولعلهم لو تبينوه لما عرفوه، ولا يستغربن أحد في مصر ذلك؛ فقد رأينا أناسًا من هؤلاء «الفطاحل»، فإذا هم أشباه أميين يراسلون الصحف العالمية، ونحسبهم نحن — مخدوعين فيهم — من حملة الأقلام العالمية!

(٣) ولا بد أن نذكر في هذا السياق أن أخبار المريخ تتطاير بها البلاغات البرقية؛ لأنها ترتبط بمسألة الخلود ولا ينحصر أمرها في مسألة الحياة؛ إذ يسأل بعض المؤمنين: كيف يا تُرى يكون خلاص الأرواح المريخية، كما أن خلاص الأرواح الأرضية في عقائد المؤمنين بخطايا الجنس البشري وحاجته إلى الفداء؟

(٤) وخاتمة المطاف اليوم أن اللغط الذي يهذر به أحلاس القهوات عندنا خليق بالإهمال الذي يلقاه من قراء العربية في كل آونة؛ لأنه سخف ينم على جهل مطبق، أو على افتراء أناس مأجورين يندفعون بأمر الموعزين إليهم من حيث لا يفقهون، فما من مخلوق يعقل ما يقول يزعم أن الأدب العصري، أو أدب الحياة العصرية، صفة تخلع على حكايات السرير ولا تخلع على دراسات تبحث عن الحياة في كل زاوية من زوايا الكون، ولا يتراخى عليها القدم كما يهذرون، بل يحسبها وكلاء الأنباء أحيانًا من عواجل البرقيات.